المحاضرة التذكارية التي ألقاها

أ.د./ شاكر عبدالحميد

بعنوان : "جوانب الإبداع"

في المؤتمر السنوي للجمعية المصرية

للدراسات النفسية يناير ٢٠٠٤

كل من هو منكم، أيها الأعزاء، على ألفة منكم بموضوع الإبداع يعرف جيدا حديث العالم رودس عن الجوانب الأربعة المكونة للإبداع والتى لخصها فى مقولته The 4P's of Creativity والتى يوضحها الشكل التالى:

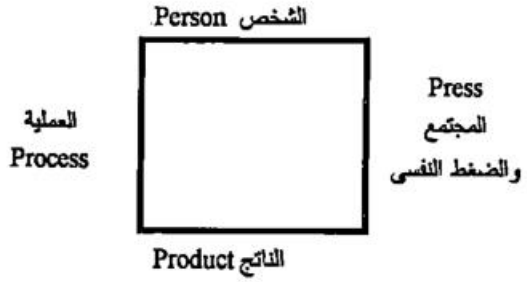

بالطبع أنا لست مبدعًا، لكنى، بشكل إرادى أولا إرادى، مقصود أو غير مقصود، وفكرت فيما كتبه فوجدت أنه ينطبق عليه تقسيم رودس هذا:

فأولاً: من حيث الاهتمام بالشخص: قمت بدراسات حول: **الأساليب المعرفية والإبداع** منها تمثيلا لا حصرا:

- علاقة الاعتماد – الاستقلال عن المجال بالإبداع.
- الفروق بين الجنسين فى أساليب التعلم والتفكير .
- الأسلوب والإبداع.
- أساليب التعلم والتفكير وعلاقتها بدافعية الإنجاز.
- علاقة الاستقلال عن المجال بالتفكير بالصور والكلمات وغير ذلك من الدراسات.

- هناك أيضًا نظرية كثيرة حول أفكار الجمال والفن وارتقاء التفضيل الجمالى لدى الأطفال، والتفضيل الجمالى فى الأدب و المسرح والسينما وأيضًا الجماليات البيئية والتربية عن طريق الفن وما شابه ذلك من الموضوعات .
- أيضًا من الدراسات التى أتصور أيضًا أنها ترتبط بالشخص تلك الدراسات التى قمت بها مع أ.د. عبد اللطيف خليفة حول موضوعات مثل:

- العلاقة بين حب الاستطلاع والإبداع فى المرحلة الابتدائية والإعدادية.
- حب الاستطلاع والإبداع والخيال.

- وكذلك بعض الدراسات مع أ.د. حسنين الكامل حول التفكير المنطقى وعلاقته بنشاط الرسم لدى الأطفال.
- أيضًا فيما يتعلق بالشخص أعتقد أن دراسة "الطفولة والإبداع" والتى صدرت فى خمسة أجزاء، وتناولت ارتقاء الإبداع والذكاء ونشاط الرسم لدى الأطفال من سن ٣-١٢ سنة هى من الدراسات التى قد ترتبط بشكل أو بآخر بشخصيات المبدعين وهى ترتقى من الناحية المعرفية عبر هذا المدى العمرى.
- أيضًا مسألة الاهتمام بالتذوق للفن عمومًا مهمة هنا، وقد قمت بدراسات تتعلق بالتفضيل الجمالى منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الفروق بين الجنسين فى التفضيل الجمالى فى فن التصوير.
- الفروق بين الجنسين فى التفضيل الجمالى فى الأدب.
- العلاقة بين التفضيل الجمالى وبعض سمات الشخصية.

وقد تم تجميع هذه الدراسات وغيرها فى كتابين هما:

(١) "دراسات نفسية فى التذوق الفنى" مع د. معتز سيد عبد الله و د. جمعة سيد يوسف.

(٢) "التفضيل الجمالى" وصدر عن سلسلة عالم المعرفة بالكويت

هذا فيما يتعلق بالشخص، أما ما يتعلق بالعملية الإبداعية فقد قمت بدراستين حول "عملية الإبداع فى القصة القصيرة" و"عملية الإبداع فى فن التصوير Painting" وهنا اهتممت بالعمليات الفرعية التى تشكل عملية الإبداع الكبرى. وكانت العمليات الفرعية التى وجهت إليها اهتمامى هى :

أولاً: الدوافع الإبداعية:

١- *الدوافع العامة:* وأهم الدوافع هنا:

أ- الدافع الإبداعى، أى رغبة المرء فى أن يكون مبدعًا وأصيلا، وهو دافع يسم المبدع فى جميع إبداعاته.

٢- *الدوافع الخاصة:* أى الرغبة فى الكتابة عن موضوع معين، موضوع بعينه، مثلا: هجرة المصريين إلى الخليج وعودة المصريين من الخليج يمكن تكريس رواية كاملة أو روايات عدة لهذا الموضوع وكذلك كتابة قصة أو قصص قصيرة حول هذا الأمر (نجد هذا لدى كتاب أمثال: محمد جبريل ومحمد المنسى قنديل وإبراهيم عبد المجيد ومرعى مدكور وغيرهم.

وتتنوع الموضوعات التى تدفع الكتاب للكتابة بطرائق مباشرة أو غير مباشرة بتنوع موضوعات الحياة ومثيراتها.

ثانيًا : العمليات الإدراكية:

ويقصد بها أن يراقب الكاتب ذاته وواقعة مراقبة دقيقة ويراقب الآخرين وسلوكياتهم ويلتقط من خلال هذه المراقبة موضوعات لقصصه.

ثالثاً: عمليات الإعداد: وتنقسم إلى ثلاثة أنواع:

أ) **الإعداد الأول :** أى حياة المبدع، دراساته ، ثقافته، تلمذته على المبدعين الآخرين، قراءاته فى فن القصة، الإعداد والتمهيد للأداء الجيد، الإطلاع على نماذج من القصة العربية والعالمية، الثقافة العامة فى السياسة ، فى الفن .. الخ.

ب) **الإعداد الثانى:** أى تهيئة الظروف المناسبة لإنضاج الفكرة، تهيئة المناخ النفسى المناسب الذى ييسر حدوث الكتابة: فالبعض يفضل الكتابة ليلا والبعض نهارًا، البعض يكتب فى أى وقت، البعض بأقلام معينة وأوراق معينة، سجائر موسيقى .. الخ.

مثلا مارسيل بروست (الفرنسى) كان يكتب فى غرفة عازلة للصوت وكان ستيفن سبندريوكد أهمية القهوة /.. الخ بينما يرى العض الآخر أن خير عادة ألا يكون للإنسان عادة.

ج) الإعداد الثالث: أى وضع خطة أو تصور لكتابته، على الورق أو فى الذهن، قد يكون مجرد تنظيم ذهنى يحدد خطى المبدع أثناء تنفيذه لعمله وقد يكون الأمر مزيجًا من الاثنين هذا الإعداد والثالث قد يحدث أثناء عملية الكتابة، أو بعد وضوح الفكرة وبلورتها وأن الخطة ينبغى أن تأتى كجزء من الارتقاء العضوى للمشروع الذى يتم إنتاجه ويكون ذلك فى أفضل حالاته بعد أن تتبلور الفكرة فليس من صالح الكاتب أن يكتب عن موضوع بشكل مبكر ولا فى وقت متأخر.

رابعًا: عمليات الاختمار والإشراق: وتشمل على :

١- عملية التركيز:

ويقصد بها القدرة على تركيز الانتباه على موضوع معين أطول فترة من الزمن وتشتمل على مستويين:

- المستوى الطولى (حيث يتابع المبدع عبر حياته موضوعًا معينًا)
- المستوى العرضى (يتابع موضوع قصة بعينها)

٢- عمليات الدوران حول الأفكار: فالأفكار الإبداعية لا تأتى دائمًا كاملة أو بسهولة، فكثيرًا ما يكتفها الغموض والإبهام، ومن ثم يحتاج الكاتب لأن يدور حولها، ينظر إليها من وجهات نظر مختلفة. هنا يحتاج المبدع إلى المرونة العقلية والبعد عن التصلب أو الإصرار الجامد على إكمال الفكرة. وقد يحتاج الأمر للصبر والاسترخاء.

٣- عمليات الإسترخاء: أى البعد عن التفكير المباشر المستمر فى القصة وموضوعها وضرورة الابتعاد والاستمتاع بالاسترخاء، هنا تتحول الفكرة أو الموضوع من بؤرة الشعور والتفكير إلى هامش الشعور، هنا قد يقوم الكاتب بسلوكيات مثل: المشى – الاستماع للموسيقى – القراءة فى موضوعات بعيدة عن موضوع القصة – التأمل – السفر – الاستحمام – النوم والأحلام – مشاهدة التليفزيون أو السينما – قراءة الصحف – الجلوس مع الأصدقاء .. الخ.

٤- عمليات الخلق الذهنى: فالإبداع لا يحدث دائمًا بشكل آلى أو أوتوماتيكى، فهناك

صعوبات تكتنفه قد تطول وقد تقصر، بعضها مادى، بعضها معنى، فقد ينقطع الكاتب عن مواصلة العمل فى قصة بعينها أو ينقطع لفترة ما تطول أو تقصر عن الكتابة وعمومًا فإن حالات الإحباط وفقدان الدافع والاهتمام هى السبب الرئيسى فى حدوث عمليات الغلق الذهنى هذه .

٥- **مجيء الأفكار ووضوحها:**

هل تأتى الأفكار فجأة؟ هل تأتى بشكل تدريجى؟ هل تجمع بين الفجائية والتدريجية؟ أنا اعتقد أنه ليست هناك قاعدة واحدة هنا وقد أطلق على هذه العلمية أسماء مثل : الحدس، الإشراق، التنوير، الإلهام، الوحى، الاستبصار .. الخ. مما يضفى صفة سحرية على هذه العملية وهذا غير صحيح. فالإلهام فى نظر فولبير، الكاتب الفرنسى، مثلا: يعنى الجلوس إلى منضدة الكتابة كل يوم وفى الساعة نفسها واعتقد أن نجيب محفوظ هو مثال آخر على ذلك.

خامسًا: عمليات التنفيذ وتشتمل على:

١- **عمليات التحقيق الفعلى للقصة:** أى الانتقال من مستوى التصور إلى مستوى الأداء الفعلى، إلى الكتابة الحقيقية للقصة، وهنا يوجد ما يسمى بالإيقاع الشخصى، فالبعض يكتب بسرعة ولا يشطب ولا يعدل، والبعض الآخر يكتب بسرعة ويشطب ويعدل، والبعض يكتب ببطء وقد يعدل أو لا يعدل .. الخ.

٢- **عمليات التقويم والنقد الذاتى:** فالكاتب هو أول ناقد لنفسه، وهناك نوع من العائد الحيوى أو التغذية المرجعية تكون موجودة بين الكاتب وعمله حتى تتحقق حالة الرضا لديه.

٣- **عمليات التصحيح والنقد والتعديل:** ويقصد بها إحداث تحويرات أو تعديلات طفيفة أو كبيرة فى الفكرة أو شكل التعبير عنها أو فى الاثنين معًا: وهناك جدل مستمر بين التقويم والتعديل، فالكاتب يقوّم ثم يعدل ثم يقوّم .. الخ. حتى يصل إلى حالة الرضا الكامل المؤقتة عن عمله، وتسمى هذه الحالة بحالة السيطرة .

٤- **حالة السيطرة:** وهى المرحلة أو الحالة التى يتم خلالها المبدع أو من خلالها من حل الصراع بين ما كان فى ذهنه أو وجدانه أو وعيه أو ما كان يتمناه،

وبين ما وصل إليه العمل الإبداعى وقد يتجاوز العمل أحلام المبدع وأمنياته وقد يخفق فى تحقيق هذه الأحلام والأمنيات. المهم أن يصل الكاتب إلى حالة الرضا النفسى هذه عن عمله.

سادساً: العمليات الاجتماعية أثناء الإبداع أو جدل الأنا والآخر :

وهناك ثلاثة مستويات لهذه العمليات:

١- **العلاقة بين المبدع وذاته:** حيث تتحول ذات المبدع إلى آخر ناقد لعمله، فهو ينقد – من مسافة – العمل الذى أكتمل أو مرحلة منه، وفكرة المساحة النفسية هنا مهمة وضرورية، ولكنها ليست كافية لأن الآخر فى النهاية يتعلق بذات تنقد نفسها، ومن ثم فهى لا تستطيع أن تتحرر تمامًا من ذاتيتها .

٢- **الجماعة السيكولوجية:** ويقصد بها القراء الأوائل للعمل، أى المجموعة التى يشعر المبدع بوجه تشابه بينهم وبينه فى الأحكام والذوق. وهناك أمثلة على ذلك فى تاريخ الأدب كتلك التى كانت بين جوركى وتشيكوف وكورلنكو فى روسيا، أو بين العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى مثلا فى مصر .. الخ وكذلك جماعة الحرافيش فى مصر أيضًا .. الخ.

وما يحدث كذلك حين يأتى كاتب ويقرأ قصة لم ينشرها بعد أمام جماعة يشعر معها بالأمان فى نادى القصة مثلا .. المهم الشعور بالأمن والأمان وتقارب الذوق.

٣- **جماعة الجمهور العام:** وهى جماعة من القراء والنقاد، وهذه جماعة مهمة يتوجه الكاتب فى الغالب إليها أملا أن يحظى بإعجابها وتقديرها الإيجابى له.

طبعًا هذه عمليات إبداعية عامة يمكن أن تصدق فى القصة لقصيرة أو فى الرواية أو فى أى إبداع آخر فما الذى يفرق أساسا بين القصة والرواية مثلاً؟

أعتقد أنه يوجد عدد من الفروق الأساسية من الناحية السيكولوجية بين القصة القصيرة والرواية إضافة إلى الفروق بينهما فى الحجم والشخصيات وما شابه ذلك.

وهل هناك فروق بين سيكولوجية كتابة القصة القصيرة فى مصر وكتابتها فى أى مكان آخر فى العالم؟

الإجابة هى بنعم ولا فى الوقت نفسه حيث توجد تشابهات من حيث التكنيك،

وتوجد اختلافات من حيث الموضوعات. مثلا لن نجد كاتبا فى إنجلترا أو فرنسا يكتب قصته عن العودة من دول الخليج بينما نجد ذلك فى مصر. كذلك الكتابة عن عادات وتقاليد كالثأر مثلا.

أما من حيث التكنيك فهو يكاد يكون متماثلا، فهو جزء من تراث الإنسانية.

القصة القصيرة ظاهرة عالمية من حيث شيوعها ومن حيث وظائفها والتكنيكات التى تعتمد عليها، وهى أيضًا عالمية لأنها تعكس حاجات إنسانية، . إذن هناك جانبان ينبغى أن نشير إليها هنا هما:

١- **الجانب العالمى:** وهو الجانب الخاص بالتكنيك والوظائف.

٢- **الجانب المحلى:** وهو الخاص بالمواقف والمحتويات وفيما يتعلق بالجانب الأول: العالمى: التكنيك متشابه ونحن "أخذنا العديد من تكنيكات القصة من الشرق والغرب مع نشاط حركة الترجمة ولكن لدينا أيضا بدايات معروفة لهذا الفن ليس الآن الموضع المناسب للحديث عنها ومن التكنيكات نجد مثلا:

- القصص التقليدية التى تعتمد على البداية والوسط والنهاية.
- القصص ذات النهايات المفتوحة
- القصص الشيئية
- القصص الأسطورية والتراثية ... الخ.

أما أهم الوظائف فهى وظائف الفن عمومًا وهى:

١- اللعب العقلى

٢- أسلوب للتخفف من الخوف والقلق والإحباط

٣- ترسيخ عضوية الفرد فى جماعة الكتاب والمبدعين

٤- التعبير عن وجهة نظر أو فكرة أو انطباع تجاه الواقع والمجتمع

٥- النقد الاجتماعى

٦- التخفف من وطأة القيود الاجتماعية وهنا تكون القصة وسيلة - فى نظر فرويد مثلا - للتعبير المباشر المقبول اجتماعيا عن الدوافع اللاشعورية الجنسية والعدوانية والإنسانية لدى الكاتب.

٧- وسيلة لتحقيق الذات والنمو الإنسانى ... الخ.

أما بالنسبة للجانب الثانى المحلى، فإن المجتمعات الإنسانية تختلف كثيرًا من حيث المواقف التى يعبر عنها الكاتب داخل القصة القصيرة أو التى تعتبر القصة القصيرة مناسبة لها وهنا تتداخل عوامل عديدة منها.

- المشكلات الفعلية التى تعانى منها المجتمعات.
- المواقف والتحولات التى لا يمر بها الإنسان والمجتمع (موضوع السفر للخليج والعودة منه الذى بدأناه كلامنا).
- الضوابط الأخلاقية والتحريمات وحدود المسموح به وغير المسموح به داخل المجتمع.
- وبذلك تتنوع الموضوعات بتنوع المجتمعات مع وجود موضوعات مشتركة أيضًا نتيجة للتشابهات البشرية المعروفة.

هناك علاقات كثيرة بين الإبداع بالكلمة (فى القصة القصيرة) والإبداع باللون والخط (فى التصوير مثلا) منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- أهمية الإعداد والتمكن التقنى من المجال .

٢- أهمية عملية الإدراك للواقع والذات.

٣- دور الخيال المهم فى الإبداع.

٤- دور الدافعية المهم فى الإبداع.

٥- دور المرونة المهم فى الإبداع.

٦- الدور الاجتماعى المهم فى الإبداع وغيرها.

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن عملية الإبداع ونتحرك نحو البعد الثالث أى وهو الناتج الإبداعى. وقد ظهر ذلك من خلال اهتمامى بكتابات دراسات نقدية عديدة على أدباء مصريين وعرب وصلت إلى ما هو أكثر من ستين دراسة على كتاب قصة قصيرة و روائيين وشعراء وقمت كذلك ببعض الدراسات أيضًا على رسامين ومخرجى سينما وغيرهم. وكان الاهتمام الأساسى هنا هو الناتج، أى الإبداع الفعلى أو مسوداته وكنت أمتزج بين الاتجاهات السلوكية والمعرفية والتحليلية النفسية أيضًا وظهر ذلك الجهد فى ثلاثة كتب هى.

١- السهم والشهاب دراسات فى القصة والرواية ١٩٨٦

٢- الحلم والرمز والأسطورة ١٩٩٣

٣- الرموز التشكيلية ودلالاتها ١٩٩٣

كذلك فيما يتصل بالناتج نشرت كتابا بعنوان "الأدب والجنون" ١٩٩٣ فى محاولة للربط بين الأعمال الروائية لكتاب مثل شكسبير وستوبفسكى / سترندرج وكافكا .. الخ ومن التوصيفات الطبية النفسية للأمراض.

أما عن البعد الرابع وهو البعد الاجتماعى: فقد ظهر فى ثنايا تلك الدراسات السابقة، حيث الاهتمام بدور الأسرة والمدرسة والمجتمع بشكل عام فى "دراسات الطفولة والإبداع" وحب الاستطلاع والخيال والإبداع لدى الأطفال" "والعملية الإبداعية فى فن التصوير" "وفى القصة القصيرة" وغيرها.

إضافة إلى هذا فإن لى بعض الترجمات وصلت إلى سبعة كتب هى:

١- الأسطورة والمعنى ١٩٨٦.

٢- بدايات علم النفس الحديث ١٩٦٨

٣- العبقرية والإبداع والقيادة ١٩٩٣

٤- الدراسات النفسية للأدب ١٩٩٣

٥- سيكولوجية فنون الأداء ٢٠٠٠

٦- معجم المصطلحات الأساسية فى علم العلامات ٢٠٠٢

٧- كتاب تحت الإعداد يضم العديد من المقالات المترجمة ذات الصلة بموضوعات الإبداع والتذوق وفنون الأطفال وغيرها.

فى السنوات الأخيرة بدأت أرى صلة بين موضوعات الإبداع والتذوق وموضوعات سيكولوجية أخرى، منها مثلا موضوع الفكاهة والضحك .

فالإبداع يحتاج إلى مرونة فى التفكير، كذلك تحتاج الفكاهة إلى مرونة فى التفكير والإبداع يعتمد على الخيال كذلك تعتمد الفكاهة على الخيال. والإبداع لا يكتمل إلا بوجود الآخر والفكاهة لا نتصورها فى النكتة والكوميديا والكاريكاتير .. الخ بدون وجود الآخر.

والإبداع فى أحد تفسيراته هو نوع من إدراك التناقض والجمع بين الأشتات، كذلك تفعل الفكاهة ويفعل الضحك. والإبداع يشتمل على متعة جمالية استطيقيه كذلك الفكاهة فيها هذه المتعة. وهكذا.

وأخيرا فإننى لا بد لى من أن أذكر عدة نقاط حتى أخرج من حالة الأنا التى تلبستنى مؤقتا فى هذه الكلمة إلى حالة النحن الإنسانية فأقول:

١- إننى حصيلة أو نتاج لكل ما كتبه وأبدعه وساهم به أستاذتى فى مصر وفى العالم كله، كل من قرأت له أو تتلمذت على يديه، أو قدم لى مساعدة علمية أو إنسانية، كبيرة كانت أم صغيرة، ولا أستطيع أن أذكر الأسماء حتى لا أنسى أحد، فهم كثر.

٢- أنا مجرد حلقة فى سلسلة كبيرة متراكمة من الإنجازات المصرية فى مجال دراسات الإبداع سواء ما تم منها فى جامعة القاهرة أو عين شمس أو غيرها من الجامعات المصرية.

٣- لا اعتبر نفسى منتمياً إلى مدرسة بعينها، أو إلى تيار بعينه، فأنا أحاول أن أجمع بين أكثر من مدرسة: السلوكية والمعرفية والتحليل النفسى، والمدرسة الأخيرة الذى تبدو خصوبتها واضحة فى التفسير للأعمال الفنية مقارنة بغيرها من المدارس.

٤- لا أعتقد أن الكم والإحصاء هو من الأمور الكافية فى مثل هذه الدراسات التى تقوم بها خاصة فى مجال الإبداع، إن الاتجاهات الكمية والإحصائية قد تكون كما يقول المناطقة ٥- من الشروط الضرورية لكنها ليست من الشروط الكافية فهى لا تغنى عن الخصوبة والمعنى والدلالة الإنسانية إنها خادم جيد وسيد سئ.

أنا مؤمن تمامًا بأهمية الدراسات الجماعية أو روح الفريق وكذلك بما يسمى بالبينية Interdisciplinary فى البحث العلمى، سواء فيما بين الدراسات السيكولوجية وبعضها البعض بفروعها المتنوعة، أو فيما بين الدراسات السيكولوجية والدراسات الاجتماعية والطبية والفنية والأدبية وغيرها.

على كل حال، لم تكن هذه الأنا التى استخدمتها فى هذه الكلمة إلا محاولة للتواصل والوجود معكم، وأرجو أن أنجح دائمًا أن أخرج من هذه الأنا الناقصة إلى الوجود معكم معشر العلماء والباحثين، أصحاب الفضل الأول فى هذا التكريم.

وللجمعية المصرية للدراسات النفسية ولرئيس مجلس إدارتها أ.د.آمال صادق مختار كل التقدير والشكر والامتنان على ما قدموه لى وما يقدمونه للحياة الثقافية والعلمية فى مصر والعالم العربى من جهود جديرة بالإجلال والثناء العميق.